أجرى المقابلة: أنطوان شلحت وبلال ضاهر

كاتب إسرائيلي شاب ومؤلف "البلاد في ما وراء الجبال"

نير برعام: ما حدث في ١٩٦٧ استمرار لما حدث في ١٩٤٨!

*** اتفاقات أوسلو بُنيت على فرضية إسرائيلية غير صحيحة تتعلق بمدى حجم تنازلات الفلسطينيين وفي الوقت عينه أتاحت تطبيع المستوطنات وشرعنتها* من الصعب جدا رؤية "حل الدولتين" مطبقا ميدانيا على أرض الواقع * منذ اللحظة التي انهار فيها مشروع "اليسار الصهيوني" في أعقاب كامب ديفيد ٢٠٠٠ لم يطرح هذا اليسار أي بشرى أخرى***

يعود السبب الرئيس لاختيار شخصية مقابلة هذا العدد، وهي الكاتب الإسرائيلي الشاب نير برعام (مواليد ١٩٧٦)، إلى آخر كتبه وهو بعنوان "البلاد في ما وراء الجبال" (منشورات "عام عوفيد"، ٢٠١٦)، والذي كان عبارة عن ريبورتاجات تشكل حصيلة رحلة استمرت أكثر من عام قام بها في مناطق الضفة الغربية بما في ذلك القدس الشرقية والتقى خلالها الكثير من الفلسطينيين وأيضا جماعات من المستوطنين.

وتوصل برعام إلى عدة استنتاجات فكرية في مقدمها أنه ليس بالإمكان التوصل إلى حل ما للصراع الإسرائيلي- الفلسطيني من دون الحديث الصريح والصادق حول ما جرى هنا في العام ١٩٤٨ (النكبة الفلسطينية). وشدّد على أن الإسرائيليين في هذه النقطة منغلقون تماما، كما أن "اليسار الصهيوني" لا يرغب في التحدث عن ١٩٤٨ وهو يعرف السبب وهذا ما يعكسه كتابه الجديد أيضا.

وأشار برعام في سياق المقابلة إلى أنه قبل نحو أربع سنوات بدأ يشكك في فكرة حل "الدولتين للشعبين" في حدود حزيران ١٩٦٧، إذ بدا له أن الحديث بهذا الشأن يدور حول شيء يفقد في أرض الواقع الكثير من معناه ومن فرص تحقيقه، وخصوصا حيال مواصلة البناء في المستوطنات والحديث عن "الكتل الاستيطانية".

وأضاف: أصبح الحديث عن هذا الحل يبدو لي خارجا عن سياقه الزماني وغير ذي جدوى. وتساءلت بيني وبين نفسي: هل سنبقى نتحدث عن هذا الحل في العام ٢٠٤٠ حين يصل عدد المستوطنين إلى مليون شخص؟

من وجهة نظر برعام، من أجل الإقدام على أفعال ملموسة في سبيل المستقبل ينبغي أولا الاعتراف بما حدث. وعلى اليسار في إسرائيل أن يعرف كيف يناقش وينتقد نفسه قبل انتقاد اليمين. وفي أكثر من مناسبة أكد برعام أن اليسار في اسرائيل أيضا مسؤول عن الفصل بين اليهود والعرب داخل الخط الأخضر، الذي يعتبر لبّ العنصرية، وبذا ساهم في إيجاد غيتو يهودي يرى في غير اليهودي خطرًا يلاحق اليهودي ومشروعه. ولذا يتحمّل هذا اليسار مسؤولية التحريض العنصري المتفشّي في الآونة الأخيرة والذي وصل إلى ذروة غير مسبوقة.

بموازاة ذلك يعتقد برعام أن اليسار في إسرائيل ما يزال ذا صلة وأهمية سياسية وأيديولوجية. ويشير إلى أنه، شخصيا، عضو في الوقت الحالي في حركة جديدة تدعى "دولتان، وطن واحد" تطرح فكرة الكونفدرالية، التي تبدو له بمثابة الحل الأكثر معقولية الآن ويمكن أن يلتف حولها مؤيدون كثر، لا من اليسار وحده فقط، بل ومن اليمين أيضا.

ترعرع برعام ضمن عائلة تنتمي إلى حزب العمل وأسلافه، فوالده الوزير وعضو الكنيست السابق عوزي برعام، وجده الوزير السابق موشيه برعام، وقد ولد كما سبقت الإشارة قبل عام واحد من انتهاء هيمنة هذا الحزب على الحلبة السياسية الإسرائيلية منذ عام ١٩٤٨ . وهذا ما أشار إليه ردا على أول سؤال وُجّـه إليه قائلًا:

"ولدتُ في عائلة سياسية جدا، ضاربة جذورا عميقة في حزب العمل، فجدي موشيه برعام كان سكرتير مجلس عمال القدس، وكان قائدا عماليا. وقد هاجر إلى البلاد من أوكرانيا. وهذا هو الجانب الأشكنازي الوحيد لديّ، عمليا. وزوجته هاجرت إلى البلد من حلب في سورية. كانت تتحدث العربية في السنوات الأولى، ثم تحولت إلى العبرية فقط. وقد أصبحت أكثر يمينية مع مرور الوقت.

"أما جدّاي من جهة أمي، فقد جاء جدي من عدن في اليمن بينما كانت زوجته من عائلة بيطون السفارادية المقدسية.

"وباختصار، كانت عائلتي جزءا من حزب العمل، لكن في الطرف الأيسر منه. وعمّاي الإثنان، شقيقا والدي، كانا ناشطين في أوساط اليسار الراديكالي، كلاهما ماركسيان، درسا في بريطانيا سنوات طويلة وكانا ناشطين في أوساط اليسار البريطاني. وأحد الأشياء التي كان لها تأثير كبير وعميق عليّ في سن مبكرة جدا، نسبيا، هو التوتر الدائم بين مواقف جدي ووالدي (عوزي برعام)، التي

نير برعام.

ابتعدت عنها في فترة مبكرة من حياتي، من جهة، ومواقف عميّ (حاييم برعام ومناحيم برعام)، من جهة أخرى.

"لقد ولدتُ في العام ١٩٧٦ ، وفي العام التالي (١٩٧٧) خسر حزب العمل السلطة. وهكذا، ترعرعت في واقع زوال هيمنة حزب العمل. وهو ما عايشته في القدس بصورة بارزة جدا. ومن الأمور المثيرة أن عائلة والدتي هي عائلة فقيرة نسبيا، لم تتعلم أي من بناتها في الجامعة، أمها كانت مؤيدة للحاخام عوفاديا يوسيف، الزعيم الروحي لحركة (حزب) شاس، والدها كان مقامرا وترك البيت وهي ما تزال فتاة صغيرة. وإحدى بؤر التوتر في عائلتي كانت بين عائلة أمي، الشرقية وغير المتعلمة، من جهة، وعائلة والدي التي كانت إحدى أكثر العائلات شهرة في القدس، من جهة أخرى".

(*) سؤال: هل كنت ناشطا سياسيا في شبابك؟

برعام: لا لم أكن ناشطا سياسيا. كنت لاعب كرة قدم في فريق "هبوعيل القدس" وبدأت أمارس الكتابة في سن مبكرة نسبيا. الفعل السياسي الأول الذي قمت به كان في العام ١٩٩٦ ، حين كنت جنديا في الجيش الإسرائيلي. وقد أديت في الجيش وظائف مثيرة للضحك، منها مثلاً أنني كنت سكرتيراً لأحد الجنرالات. في تلك الفترة، وفي العام ١٩٩٦ تحديدا، نظمنا، أنا وعدد من زملائي الجنود، مظاهرة في "ميدان صهيون" شارك فيها نحو خمسة آلاف شخص، في ذكرى مرور سنة على المظاهرة التي قتل فيها إسحق رابين في تل أبيب. هذا كان النشاط السياسي الأول الذي قمت به. وقد كنتُ قريبا في آرائي السياسية آنذاك من "اليسار الصهيوني" وحزب "العمل". وهو ما شهد تحوّلا في سنوات العشرين الأولى من عمري، إبان دراستي الجامعية في تل أبيب، حيث بدأت أنظر إلى الأمور بصورة أكثر تركيبا وشمولية فابتعدت عن هذا الوسط السياسي.

«أحد الأمور التي كانت تضايقني طوال سنوات كثيرة هو أن جدّتيّ كانتا تتحدثان اللغة العربية، وكذلك جدي أيضا، بينما أنا لم أعرف اللغة العربية. وحين كنت طالبا في المرحلة الثانوية، أذكر أنني لم أحبّ دراسة اللغة العربية. لم أتعمق في الأمر لا تفكيرا ولا فهما. وفي مرحلة لاحقة، قبل أربع سنوات، بدأت أتعلم اللغة العربية في مدينة يافا.»

"في إسرائيل إنكار جوهري وعميق لما حدث عام ١٩٤٨ (النكبة)"

(*) سؤال: كيف تولدت فكرة كتابك الأخير "البلاد في ما وراء الجبال"؟

برعام: أحد الأمور التي كانت تضايقني طوال سنوات كثيرة هو أن جدّتيّ كانتا تتحدثان اللغة العربية، وكذلك جدي أيضا، بينما أنا لم أعرف اللغة العربية. وحين كنت طالبا في المرحلة الثانوية، أذكر أنني لم أحبّ دراسة اللغة العربية. لم أتعمق في الأمر لا تفكيرا ولا فهما. وفي مرحلة لاحقة، قبل أربع سنوات، بدأت أتعلم اللغة العربية في مدينة يافا، لدى معلم يدعى "علي"، ثم لدى معلمة تدعى "حنين". لا أستطيع القول إنني حققت إنجازات كبيرة، لكن هذا الأمر الأول الذي كان يضايقني جدا. والأمر الآخر الذي كان يزعجني هو أنني لم أكن أعرف منطقة الضفة الغربية ولا السكان الفلسطينيين فيها. فالفلسطينيون الذين كنت أعرفهم هم فلسطينيون مواطنون في إسرائيل أو من السلطة الفلسطينية أو صحافيون، بينما لا أعرف جغرافية الضفة الغربية وسوسيولوجيتها. وقبل نحو أربع سنوات بدأت أشكك في فكرة حل "الدولتين للشعبين" في حدود حزيران ١٩٦٧، إذ بدا لي أننا نواصل الحديث عن شيء يفقد في أرض الواقع الكثير من معناه ومن فرص تحقيقه، وخصوصا حيال مواصلة البناء في المستوطنات والحديث عن "الكتل الاستيطانية". أصبح الحديث عن هذا الحل يبدو لي خارجا عن سياقه الزماني وغير ذي جدوى. تساءلت بيني وبين نفسي: هل سنبقى نتحدث عن هذا الحل في العام ٢٠٤٠ حين يصل عدد المستوطنين إلى مليون شخص؟ وانتبهت إلى أمر آخر هو الإنكار الجوهري والعميق السائد في إسرائيل لما حدث في العام ١٩٤٨ وصرت معنيا بالتحدث إلى عدد كبير من الفلسطينيين، ليس عشرين شخصا فقط وإنما خمسمئة، لفحص ما إذا كانت النظرية المكرسة في أوساط اليسار والوسط الإسرائيلي عن أن الفلسطينيين يتحدثون عن حدود ٦٧ بينما هم يريدون حدود ٤٨ فعليا هي نظرية صحيحة. وقد أشغلني هذا الموضوع كثيرا، فقرأت نصوصا فلسطينية عديدة، سواء أكانت كتبا أم مقالات، كما قرأت أيضا نصوصا كثيرة ترجمها صديقي يهودا شنهاف. قرأت كثيرا عن النكبة. كما التقيت أيضا مع العديد من المستوطنين واستمعت إلى ما يقولون وكيف ينظرون إلى المستقبل.

كانت الأماكن الأولى التي زرتها "راس شحادة"، "راس خميس"، كفر عقب، وهو مكان يبعد ٥٠٠ متر عن المكان الذي كنت أتعلم فيه عند معلمة خصوصية في حي "التلة الفرنسية" في القدس وبضعة كيلومترات عن بيتي. كنت في راس خميس وراس شحادة أكثر من ١٥ مرة. في المرة الأولى لم أصدق ما تراه عيناي. لم أصدق أن أماكن كهذه موجودة هنا. أيقنت أن غالبية الناس في إسرائيل لا تعي ولا تفهم ما بلغه الاحتلال من تعقيد ودهاء.

(*) سؤال: ماذا تقصد؟

برعام: الصورة الأولى التي رأيتها هي سحب من الدخان، حاويات النفايات المحروقة وثلاث بنات صغيرات يرتدين ملابس جميلة ويحملن حقائب مدرسية على ظهورهن يخرجن من قلب الدخان. تقترب منهن وتتحدث معهن فتسألهن: ماذا تردن أن تصبحن حينما تكبرن؟ وثلاثتهن يرغبن في أن يصبحن طبيبات.

هذه هي الصورة الأولى. ثم حينما جلسنا في منزل أحد النشطاء السياسيين، بصحبة زوجته وبناته. قالت الزوجة: هذا هو المكان الأسوأ في العالم، إنه أسوأ ما يمكن أن تراه. أن تعيش في هذا المكان معناه أنك تعيش في جهنم. وأذكر أنني تجولت هناك، ثم عدت إلى تل أبيب وقلت لأصدقائي ومعارفي: إنه أسوأ حتى من "بلاطة"، بكثير. وما يثير السخرية حقا أن هذا المكان هو في منطقة القدس، في ضواحيها.

وقد أدركت، مثلا، أن "جدار الفصل" هو أول ما ينبغي إسقاطه وإزالته، قبل أي حديث عن ترتيبات وتسويات سياسية.

نحن، اليهود، نتناقش كل الوقت: هل تؤيد حل الدولتين أم

الحدث المؤسس للصراع: النكبة.

الكونفدرالية؟ بينما ما يشغل الفلسطينيين هو أشياء أساسية جدا، مثل حرية الحركة والتنقل، ولا يهمهم كثيرا ـ وأقصد الناس الذين التقيتهم على الأقل ـ إن كان الحل هو "إكس" أو "واي".

أنا، شخصيا، أؤيد أي حل يمكن تطبيقه وفيه ما ينهي معاناة الناس اليومية.

باختصار، أردت فحص مواقفي كلها. وفيما يتعلق بـ ٤٨، وجدت أن هذا ما أعاد صياغة وبناء رؤيتي ومواقفي السياسي من جديد.

(*) سؤال: هل تعتبر كتابك الجديد "أدب رحلات" أم "أدب المدينة الفاسدة والواقع المرير" (رواية ديستوبيا)؟

برعام: لا، هو "أدب رحلات"، بالتأكيد. لم أكتب شيئا غير الواقع والحقيقة. وحتى حين كنت في رام الله والتقيت عضو "حماس" الذي أقام صفاً لتدريس اللغة العبرية وقال لي إن "الحل بالنسبة لي هو أن يعود جميع اليهود إلى أوروبا"، كتبته بدقة. كتبتُ كل ما سمعت وشاهدت، بما في ذلك ما قاله لي المستوطنون عن "حل الترانسفير" لغالبية الفلسطينيين.

وبالمناسبة، لم أكتب رأيي الشخصي إلا في ما ندر. أردت أن يقرأ الناس الأمور على حقيقتها، كما هي في الواقع. ومنها، على وجه الخصوص، أن اليهود لا يمتلكون أي رؤية بالنسبة للمستقبل. ليست لديهم أدنى فكرة عما سيكون عليه وضع إسرائيل ـ فلسطين بعد أربعين سنة. وهو أمر مذهل، حقا.

(*) سؤال: هذا الجانر نادر جدا في الأدب العبري في إسرائيل. نذكر منه، مثلا، كتاب عاموس عوز "هنا وهناك في أرض إسرائيل" أو كتاب دافيد غروسمان "الزمن الأصفر". فهل ثمة ما يمكن الإشارة إليه في هذا الصدد؟

برعام: لا شك في أن حضور عوز وغروسمان في كتابيهما كان بارزا جدا، بينما حضوري أنا هو أقل بروزا. ومع ذلك، ثمة فارق واحد جوهري جدا بيني وبينهما: غروسمان وعوز يمثلان الفئة التي تعتبر ١٩٦٧ مفتاحا ونقطة انطلاق لفهم كل شيء. برأيهما حتى العام ١٩٦٧ كنا (الإسرائيليين) أخلاقيين جدا، ممتازين وعلى ما يرام. وفي ذلك العام وقعت مصيبة لا يمكن وصفها أو تفسيرها. إنها مصيبة مسيانية، دينية، لكن لا علاقة لها بالصهيونية الحقيقية. وهو كلام غير صحيح بالمرة، طبعا، ذلك أن الصهيونية العلمانية استخدمت البعد الديني باستمرار.

هذه المعادلة غير موجودة وغير قائمة في كتابي هذا، إطلاقا.

«نحن، اليهود، نتناقش كل الوقت: هل تؤيد حل الدولتين أم الكونفدرالية؟ بينما ما يشغل الفلسطينيين هو أشياء أساسية جدا، مثل حرية الحركة والتنقل، ولا يهمهم كثيرا - وأقصد الناس الذين التقيتهم على الأقل - إن كان الحل هو "إكس" أو "واي".

أنا، شخصيا، أؤيد أي حل يمكن تطبيقه وفيه ما ينهي معاناة الناس اليومية.»

وعليّ أن أقول، بكل استقامة، إن أحد المستوطنين قال لي: أنا أقيم هنا على أرض فلسطينية، لكن ليس في بيت فلسطيني أو على أنقاض بيت فلسطيني. وأنتم تريدون مني التنازل عن أرضي وبيتي والعودة إلى سديروت (في جنوب إسرائيل) للعيش هناك في حالة من الفقر. ولكن، ماذا عن الناس الذين سرقوا البيوت في "شارع غزة" في القدس أو في كفار سابا؟ عمّ سيتنازل هؤلاء؟

كان هذا سؤالا جيدا، في رأيي.

الجهة التي كسبت مما حدث في ١٩٤٨ حقا هي "الصهيونية الجميلة"، الناس الذين حصلوا على الممتلكات، البيوت والكروم وتملكوها وكأن هذا كله ليس موضع نقاش، وينبغي كسر هذا التابو.

وبالمناسبة، هذا هو الأمر الأصعب في كتابي هذا. وهو أشبه بطابة البينغ بونغ ترتطم بالحائط. الناس يقرأون الكتاب وينجحون في تجاهل هذا الأمر أو تناسيه.

ولهذا، أستطيع القول إن كتابي عوز وغروسمان أزعجاني جدا من هذه الناحية. لأنهما لم يصغيا للفلسطينيين. لم أجد فلسطينيا واحدا ممن التقيتهم لا يتحدث عما حدث في ١٩٤٨ . ليس جميعهم ممن طردوا آنذاك، رغم أنني التقيت أشخاصا ممن طردوا فعلا. أحدهم، مثلا، هو أحمد طوقان، المسؤول عن مخيم "بلاطة" من قبل حركة "فتح"، قال لي، في الكتاب: أنا أريد العودة إلى قريتي وإلى بيتي، وأنا مستعد لأن أصبح مواطنا في دولة إسرائيل.

هذا كلام لا يعرفه الإسرائيليون ولا يفهمونه. كل ما يعرفونه هو خط ١٩٦٧، رغم أنهم لا يعتبرونه تجسيدا للرؤية السياسية المستقبلية. والفلسطينيون أيضا لا يعتبرونه كذلك. وهي حقيقة ينبغي تسجيلها والاعتراف بها.

وعلي أن أوضح، بكل تواضع، أنني لا أتحدث باسم الفلسطينيين، بل أقول ما سمعته فقط.

"المستوطنات ازدهرت بفضل أوسلو أيضا"!

(*) سؤال: أنت تكتب أيضا عن مرحلة أوسلو باعتبارها نقطة تحول أخرى وأن ما حدث في أوسلو كان مأساويا بمعنى ما، إذ عزز الاحتلال حضوره ومواقعه في الميدان، واستولى على المزيد من الأرض...

برعام: بداية عليّ القول إنني أجد في هذا الحديث بعض الصعوبة العاطفية، كونه يدور عن حكومة رابين التي كان والدي وزيرا فيها.

قبل أن أزور الضفة الغربية، لم أفكر أبدا بما تعنيه "منطقة C" (ج) حقا وفي العمق. ثم قرأت، لاحقا، ما كتبه رجا شحادة وزرت الضفة الغربية وتحدثت مع داني دايان (الرئيس السابق لمجلس المستوطنات في الضفة الغربية) الذي قال لي إن المستوطنات ازدهرت بفضل أوسلو، إذ تم شق وتعبيد شوارع التفافية حولها وتم تطبيع وضع المستوطنات، لأن الفلسطينيين تقبلوا في أوسلو، عمليا، وجود المستوطنات، ولو في هذه المرحلة على الأقل.

ثانيا، ومن جهة أخرى، لم أفهم تماما أنه في اللحظة التي حصلت إسرائيل في أوسلو على حق السيطرة على ٦٠٪ من الضفة الغربية وحق التصرف فيها كما تشاء، فهذا يبقي الباب مفتوحا أمام رغبتها ومشيئتها. بمعنى، أن حكومة (إسرائيلية) معينة، تلك التي وقعت على الاتفاق، قد لا تقوم بالبناء في المستوطنات. ولكن، ماذا سيحدث لو أتت حكومة أخرى؟ عندئذ فهمت ما قصده رجا شحادة حينما كتب عن "م. ت. ف. تونس". فقد ادعى شحادة بأن "م. ت. ف. تونس" لم تفهم في أوسلو ما معنى منطقة C وقد حاول أن يشرح لهم.

ثم تدرك، فجأة، حقيقة الهراء الذي يدور في إسرائيل حول التنازلات التي قدمتها في أوسلو، وتتيقن بأن أوسلو كان، في الحقيقة، تنازلا فلسطينيا هائلا قام، بمعنى معين، على أساس إيمان بسلامة النيات الإسرائيلية وصدقها. ربما كان الأمر كذلك حقا بالنسبة إلى حكومة

«ثم تدرك، فجأة، حقيقة الهراء الذي يدور في إسرائيل حول التنازلات التي قدمتها في أوسلو، وتتيقن بأن أوسلو كان، في الحقيقة، تنازلا فلسطينيا هائلا قام، بمعنى معين، على أساس إيمان بسلامة النيات الإسرائيلية وصدقها. ربما كان الأمر كذلك حقا بالنسبة إلى حكومة رابين آنذاك، لكن في اللحظة التي تبدلت فيها الحكومة، تحولت منطقة C إلى كارثة حقيقية.»

رابين آنذاك، لكن في اللحظة التي تبدلت فيها الحكومة، تحولت منطقة C إلى كارثة حقيقية. ويجب أن تنتبها إلى أن الإسرائيليين لا يدركون دقائق الأمور هذه وما معنى A, B, C أو H1 و H2 في الخليل. وهكذا، أيقنت بأن الإنجاز الأول لأوسلو يكمن في أنها أتاحت لإسرائيل تطبيع المستوطنات وشرعنتها، ثم مواصلة البناء فيها دون أن تكون لدى الفلسطينيين أي شرعية لمجرد الاعتراض.

(*) سؤال: هل ترى أن هذا كان مخططا مسبقا؟

برعام: حينما زرت رام الله، بلاطة والقدس إبان اختطاف الشبان (المستوطنين) الثلاثة اليهود كان الجميع هناك يقول لي إن هذا كذب وإن الشبان لم يُختطفوا وإن الأمر لا يعدو كونه مؤامرة من الجيش و"الشاباك". وقد فاجأني هذا كثيرا، رغم معرفتي بواقع انعدام الثقة التام بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

لكنني أعتقد ـ وهذا ما رأيته على والدي أيضا ـ أن المشكلة الأساسية في أوسلو كانت أن الحكومة افترضت بأن الفلسطينيين سيتنازلون عن أمور لم يكونوا مستعدين للتنازل عنها، أبدا، من قبل. ولهذا، فقد بُنيت اتفاقيات أوسلو على فرضية غير صحيحة.

لو أن رابين هو الذي شارك في مفاوضات كامب ديفيد، بدلا من إيهود باراك، لكان سبق باراك وتقدم في العملية أكثر منه بكثير. لم يكن رابين يحلم بتقسيم القدس، ولكن كانت لديه نيات حسنة، في رأيي. الفرضية بأن الفلسطينيين سيتنازلون عما لم يكونوا مستعدين للتنازل عنه هي التي كانت خاطئة. لكن الأمر لم يكن مؤامرة مخططة في رأيي.

(*) سؤال: هل تقصد حق العودة، مثلا؟

برعام: ليس فقط. فرابين لم يكن مؤهلا، من ناحية نفسية، لتقسيم القدس. ولم يكن هذا واردا في حساباته بتاتا. وكذلك شمعون بيريس أيضا.

"حل الدولتين مع الاستيطان: كذبة كبيرة".

المشكلة في أوسلو أن الاتفاقية المرحلية ـ التي تم التوقيع عليها هناك ـ كانت راجحة بالكامل لصالح إسرائيل، بسبب الوضع السيء الذي كان يحيط بالفلسطينيين على خلفية الأوضاع الإقليمية. وهو ما استغلته إسرائيل أفضل استغلال، وخصوصا في أعقاب وفاة رابين. والمشكلة الأساسية في أوسلو أن أحدا لم يتطرق هناك إلى السؤال المركزي: وماذا عن الحل النهائي؟ ... تأجل البحث مرارا وتكرارا بصورة محسوبة ومحكمة، لكن أوسلو لم يكن محاولة خداع قام بها رابين ضد الفلسطينيين. ولم يكن هذا سبب قتل رابين.

اليسار الصهيوني لم يفهم حقا مجال التسوية الفلسطيني. إنه ليس مجالا واسعا، كما كان يعتقد كثيرون ويمنّون أنفسهم.

«عدت من جولتي هذه ممتلئا بالشكوك حيال حل الدولتين بصيغته الكلاسيكية. من الصعب جدا رؤية هذا الحل مطبقا ميدانيا على أرض الواقع. واليسار الصهيوني، في رأيي، يغذي جمهوره بأوهام ليس ثمة ما يسندها في أرض الواقع، إطلاقا. وهو يبني أوهامه هذه على حقيقة أن جمهوره لا يعرف شيئا عن الواقع الميداني، لأنه لم يزر الضفة الغربية منذ ٣٠ سنة أو أكثر.»

وحين أقول "يسار صهيوني"، فأنا أقصد حزب "العمل" وحركة "ميرتس"، بصورة أساسية.

لقد تحدثت مع ياريف أوبنهايمر، من حركة "السلام الآن"، وسألته: ما هي هذه "الكتل الاستيطانية"؟ إنها تكبر وتتوسع باستمرار ودون توقف. بل ثمة "كتل" جديدة تنشأ لم تكن موجودة من قبل، مثل "كتلة كدوميم" التي لم تكن قائمة قبل ١٥ سنة. قلت له: حتى متى سترددون القول بأن الفلسطينيين سيحصلون على دولة "مع الحفاظ على الكتل الاستيطانية"؟ ألا ترون أن هذا الخطاب قد أصبح كذبة كبيرة ومكشوفة ولا أساس لها في الواقع، قطعيا؟

ولهذا بالذات، فقد عدت من جولتي هذه ممتلئا بالشكوك حيال حل الدولتين بصيغته الكلاسيكية. من الصعب جدا رؤية هذا الحل مطبقا ميدانيا على أرض الواقع. واليسار الصهيوني، في رأيي، يغذي جمهوره بأوهام ليس ثمة ما يسندها في أرض الواقع، إطلاقا. وهو يبني أوهامه هذه على حقيقة أن جمهوره لا يعرف شيئا عن الواقع الميداني، لأنه لم يزر الضفة الغربية منذ ٣٠ سنة أو أكثر.

فكرة "دولتان، وطن واحد" تبدو لي بمثابة الحل الأكثر معقولية الآن

(*) سؤال: هل تعتقد بأن اليسار الصهيوني لا يزال ذا صلة وأهمية، سياسية وأيديولوجية، في سياق الواقع الميداني الذي تصفه في كتابك الأخير؟

برعام: أعتقد أنه لا يزال كذلك، حقا. أنا، شخصيا، عضو الآن في حركة جديدة تدعى "دولتان وطن واحد" تطرح فكرة الكونفدرالية، التي تبدو لي بمثابة الحل الأكثر معقولية الآن ويمكن أن يلتف حولها مؤيدون كثر، لا من اليسار وحده فقط، بل ومن اليمين أيضا.

أتساءل بيني وبين نفسي: ما الذي يمكن فعله الآن؟ هل إخلاء عدد كاف من المستوطنين، كالمطلوب لإقامة دولة فلسطينية "معقولة"، هو أمر ممكن وقابل للتنفيذ؟ وجوابي هو: لستُ واثقا من هذا.

من الأمور الملفتة التي شاهدتها لدى المستوطنين أن كثيرين من بين الأوساط الشبابية بينهم واعون لحقيقة أنهم يعيشون في حالة من الأبارتهايد. هؤلاء أكثر انفتاحا على العالم من أهاليهم وهم بحاجة إلى تبرير ما يفعلون. الجواب الذي يقدمه بعض هؤلاء الشباب هو كالتالي: تعالوا نقيم دولة واحدة يُمنح فيها الجميع حق الانتخاب، فنحلّ ـ بهذا ـ مشكلة الحقوق. وحين نقول "دولة واحدة"، معنى هذا أن الجميع فيها مواطنون متساوون في جميع الحقوق.

حين يأتي إليّ مستوطن من الضفة الغربية ويقول: "أنا أريد أن أبقى هنا، لكنني مستعد لدفع الثمن، بمعنى دولة واحدة للجميع"، فلا اعتراض لي على هذا. وأعتقد أن ثمة وعيا وإقرارا متزايدا بين المستوطنين الشباب بأن في الضفة الغربية الآن نظام أبارتهايد يمنح اليهود حقوقا كاملة بينما يحرم الفلسطينيين من الحقوق.

وهذا من بين الأمور المثيرة التي تحدث بين المستوطنين، وخاصة بين الأجيال الشابة منهم.

لا أعتقد أن بالإمكان التوصل إلى حل ما للصراع الإسرائيلي–الفلسطيني من دون الحديث الصريح والصادق حول ما جرى هنا في العام ١٩٤٨. لكن لا بُد من القول إن الإسرائيليين في هذه النقطة منغلقون تماما. لماذا؟ لأن اليسار الصهيوني لا يرغب في التحدث عن ١٩٤٨ وهو يعرف السبب تماما. وهذا ما يعكسه كتابي الجديد أيضا. زهافا غالئون (رئيسة حركة "ميرتس") كتبت على موقع الفيسبوك عن الكتاب وامتدحته وأشارت إلى مدى أهميته، لكنها لا تتفق مع فرضيته حول حل الدولتين، لأن غالئون لا تزال تؤيد هذا الحل. ومع ذلك، فإن غالئون لم تكتب أي كلمة، ولو واحدة،

يجب الانتباه، بداية، إلى أن حل "دولتان وطن واحد" هو حل مرحلي، وليس حلا نهائيا. هو حل يقوم على أساس وجود دولتين مستقلتين سياديتين تربط بينهما كونفدرالية تتيح حرية الحركة والتنقل التامة بين الدولتين.

ينبغي أن نفهم حقيقة الجدل الدائر في إسرائيل. أنا أتحدث مع إسرائيليين وأطرح أمامهم هذا الحل فيبادرونني بالسؤال: العرب الإسرائيليون يعتبرون أنفسهم فلسطينيين؟ وحين أرد بالإيجاب، يقولون لي: فليذهبوا إلى فلسطين، إذن. إنهم لا يفهمون، بتاتا، لماذا يعتبر العرب الإسرائيليون أنفسهم فلسطينيين. ولذلك، أقول إننا نبدأ من نقطة متدنية جدا.

عن الخيط الأساس الذي يمتد عبر فصول الكتاب كلها، وهو: ١٩٤٨ . وهذا ليس صدفة، بالطبع، وإنما كظم متعمد كانت محاولة تحطيمه وتمزيقه جزءا أساسيا من دافعيتي لتأليف هذا الكتاب. كانت هذه مسألة مهمة جدا بالنسبة لي، ولست واثقا من أنني أفلحت في محاولتي تلك. إنها من المحظورات التي لا يرغب أحد في معالجتها أو مجرد التطرق إليها والتحدث عنها.

(*) سؤال: تقول أشياء مثيرة عن الأجيال الشابة بين المستوطنين. هل تستطيع تفسير دوافع هذا التفكير، مسبباته وأهدافه، خاصة حيال ما ينطوي عليه من خطر جسيم من وجهة النظر الصهيونية، بالنظر إلى توقعات تشكيل العرب أغلبية في هذا "الوطن الواحد" خلال عقدين أو ثلاثة عقود؟

برعام: يجب الانتباه، بداية، إلى أن حل "دولتان وطن واحد" هو حل مرحلي، وليس حلا نهائيا. هو حل يقوم على أساس وجود دولتين مستقلتين سياديتين تربط بينهما كونفدرالية تتيح حرية الحركة والتنقل التامة بين الدولتين.

ينبغي أن نفهم حقيقة الجدل الدائر في إسرائيل. أنا أتحدث مع إسرائيليين وأطرح أمامهم هذا الحل فيبادرونني بالسؤال: العرب الإسرائيليون يعتبرون أنفسهم فلسطينيين؟ وحين أرد بالإيجاب، يقولون لي: فليذهبوا إلى فلسطين، إذن. إنهم لا يفهمون، بتاتا، لماذا يعتبر العرب الإسرائيليون أنفسهم فلسطينيين. ولذلك، أقول إننا نبدأ من نقطة متدنية جدا.

أما بالنسبة لبعض المستوطنين الشباب، فالذي يحصل هو أنهم لا يرغبون في التجول في مستوطناتهم في الضفة الغربية بشعور أنهم يرتكبون خطيئة وأنهم قامعون. إنهم واعون لخطاب حقوق الإنسان في العالم ولتجربة جنوب أفريقيا ولواقع الحواجز والاحتلال وما إلى ذلك، وهم يريدون حلا يجعلهم عادلين منصفين، لأنهم يرون حاجة ماسة جدا وأهمية كبيرة لأن يكونوا أخلاقيين. وهذا ما يمكن ملاحظته بسهولة عند الحديث مع هؤلاء الشبان، إذ تتكرر كلمة أخلاق على ألسنتهم بوتيرة عالية جدا، رغم تحديدها بـ"الأخلاق اليهودية".

ولهذا، فإن حل الوطن الواحد هو الحل الوحيد الذي يمكن أن يطبّع وجودهم هناك ويشرعنه.

ومع ذلك، يجب ألا نخطئ: غالبية المستوطنين لا تزال تعتمد اللامبالاة حيال معاناة الفلسطينيين وحقوقهم. ولكن المستوطنين الذين ترد أقوالهم في الكتاب يقولون، على لسان أحد أبرزهم مثلا، داني دايان: أنتم تريدون إسقاط الجدار العازل وأنا مستعد لهدم الجدار غدا. هذا كلام مثير ويجب الإصغاء إليه. إذا ما أردت بناء تحالف من أجل هدم الجدار، فلزام علي التعاون مع داني دايان أيضا، لضرورة هدم الجدار العازل غدا. وفوق هذا، داني دايان يضع أمام اليسار الصهيوني التحدي التالي، إذ يسائله: ما الذي تريدونه، حقا؟ إن ما تريدونه فعليا هو أن تعيشوا وحدكم، من غير العرب ومن خلال الانفصال عنهم. هذا ما تريدون حقا وفعلا. ولذا، يجب الانتباه إلى التفاعلات والصيرورات الجديدة في المجتمع الإسرائيلي وما ينجم عنها من تحالفات مختلفة ومثيرة للاهتمام.

اليمين الليبرالي في إسرائيل انهار تماما

(*) سؤال: على ضوء الأحداث الأخيرة، هل تعتقد بأن اليمين الليبرالي في إسرائيل يتمتع بدرجة من المنطق السليم تفوق درجته لدى اليسار الصهيوني؟

برعام: أعتقد بأن اليمين الليبرالي في إسرائيل انهار تماما. الليكود كان حزبا ليبراليا وكان فيه الكثير من الليبراليين.

الجميع ينتقد اليسار الصهيوني. وكذلك أنا. لكن هذا اليسار

«لم يأت التحريض ضد الفلسطينيين مواطني إسرائيل من اليسار الصهيوني. ثمة حملة منظمة يشنها اليمين ضد حقوق الفلسطينيين مواطني إسرائيل. وهي معركة سياسية على غاية من الأهمية، ينبغي خوضها من دون أي اعتذارات أو توجهات يمكن أن تقبل بأقل من الحقوق كاملة.»

لديه أهداف إيجابية في نهاية المطاف. وإذا ما سألتني: من الأفضل ـ نتنياهو وياريف ليفين وميري ريغف أم شيلي يحيموفيتش وإسحق هيرتسوغ وتسيبي ليفني؟ فمن الواضح لي أنني اختار المجموعة الثانية.

التحريض ضد الفلسطينيين مواطني إسرائيل لم يأت من اليسار الصهيوني. ثمة حملة منظمة يشنها اليمين ضد حقوق الفلسطينيين مواطني إسرائيل. وهي معركة سياسية على غاية من الأهمية، ينبغي خوضها من دون أي اعتذارات أو توجهات يمكن أن تقبل بأقل من الحقوق كاملة.

في صلب هذا الموضوع ثمة سؤال واحد: لمن تعود دولة إسرائيل؟ وكنت قد كتبتُ قبل عشر سنوات مقالا مشتركا مع شلومو ساند يطرح هذا السؤال ويحاول الإجابة عليه: دولة إسرائيل تعود ليهود العالم أجمع. وكأنما نتنياهو هو رئيس حكومة الشعب اليهودي. ولكن، هل يعتبر اليهود في بوينس آيريس أو في بلجيكا أو في مكان آخر في العالم بنيامين نتنياهو رئيسا لحكومتهم؟ والجواب بالطبع هو: كلا.

جوابي أنا وشلومو ساند كان بسيطا للغاية: دولة إسرائيل تعود لمواطني إسرائيل. مثلما أن فرنسا تعود إلى المواطنين الفرنسيين.

ذات مرة شاركت في ندوة سياسية مع حاييم رامون واكتشفت أن بعض السياسيين في إسرائيل ليسوا سوى شلة من الحمقى. قال رامون: ما المشكلة؟ إسرائيل هي للإسرائيليين، مثلما فرنسا هي للفرنسيين وأميركا للأميركيين .... فقلتُ له: ألا تفهم الفرق، حقا؟ بإمكانك أن تصبح فرنسياً وبإمكاني أن أصبح ألمانياً، ولكن كيف يمكن لعربي أن يصبح يهوديا؟

ولذلك، أعتقد أن هذا هو جذر المشكلة: طالما أنت تريد دولة تمنح اليهود الامتيازات المختلفة، فإن المسافة بين أفيغدور ليبرمان واليسار الصهيوني ليست كبيرة، إطلاقا. إنها، في الجانبين، تأويلات مختلفة للهدف نفسه وللوضع ذاته. أما الطريق إلى التحرر من هذا كله، فهي اقتراح رؤية جديدة تقول، حسب رأيي: دولتان ترتبطان معا برباط كونفدرالي، بحيث تكون إسرائيل للإسرائيليين. وما عدا ذلك، فإن ما تريده وما تطبقه، في الحقيقة، هو غيتو يهودي كبير وتنافس ديمغرافي لا نهائي وهذا لا يحمل أي بشرى للمستقبل. وهكذا، فاليسار الصهيوني لا يمكن أن ينتصر على اليمين طالما هو لا يطرح طريقا آخر وبديلا حقيقيا يحمل بشرى لجميع الإسرائيليين. ولكن، للأسف الشديد، غالبية السياسيين الإسرائيليين يتصرفون بجُبن في هذه النقطة، وهو ما يضمن لنتنياهو الانتصار المتكرر عليهم والفوز بالسلطة.

السؤال هو: ما الذي تقترحه وتعرضه على الإسرائيليين؟ هل تعرض عليهم دولة يهودية تعاني من البارانويا ومثقلة بالمخاوف، أم تعرض عليهم الذهاب إلى حل قد يستمر ٤٠– ٥٠ سنة لكنه يحوّل إسرائيل، تدريجيا، إلى دولة يشعر فيها كل الإسرائيليين أنهم جزء منها وتحقق طموحات جميع الإسرائيليين؟

أنا أومن بأن هذا ممكن، لكن الأمر يتطلب قائدا يتحلى بالشجاعة والجرأة ويعرض هذا الحل على الجمهور.

هيرتسوغ يقول إنه يريد أغلبية يهودية وإن الطريقة الوحيدة لتحقيق هذا هو الفصل بين الشعبين، وكذلك نتنياهو أيضا يقول إنه يريد أغلبية يهودية. لكن مهمة الإقناع أسهل على نتنياهو بكثير، باللعب على المشاعر والمخاوف. في مثل هذا الوضع، لا يمكن هزم اليمين.

أما الورقة الرابحة فعلا فهي ورقة الحل الوحيد المنطقي الممكن: وطن واحد لجميع المواطنين. دولة لجميع المواطنين الموجودين فيها.

(*) سؤال: ثمة تحولات ديمغرافية في المجتمع اليهودي، أيضا، وفق ما تشير إليه دراسات كثيرة، ابرزها دراسات أرنون سوفير التي تتوقع أن تكون غالبية اليهود في سنة ٢٠٢٠ إما من الحريديم أو من المتدينين، مقابل تقلص النواة الأشكنازية العلمانية. ما رأيك في هذا؟

برعام: أنظرا إلى الكنيست الحالي، هل تريان أن هذا ما يحدث فعلا؟ العكس هو الصحيح: "شاس" وأحزاب الحريديم والمتدينين الأخرى ("أغودات يسرائيل" و"البيت اليهودي") يمتلكون عددا من

«لدي صديقة من أوساط الصهيونيين المتدينين، تعلمت في مدرسة دينية يهودية سوية مع ٢٠ فتاة أخرى. قالت لي إنه من بين الـ ٢٠ فتاة لم تبق سوى فتاة واحدة فقط متدينة. وهذه ظاهرة يمكن ملاحظتها: في أوساط الصهيونيين المتدينين هنالك عودة واسعة جدا إلى نوع من العلمانية، ليس قريبا من علمانيتي أنا لكن علمانية ناعمة.

ثمة ظاهرة علمنة آخذة في الاتساع في أوساط الصهيونيين المتدينين.»

الأعضاء أقل بكثير مما كان في العام ١٩٩٩ مثلا. كيف نفسر هذا، إنْ كان ما تقوله تلك الدراسات صحيحا؟

لدي صديقة من أوساط الصهيونيين المتدينين، تعلمت في مدرسة دينية يهودية سوية مع ٢٠ فتاة أخرى. قالت لي إنه من بين الـ ٢٠ فتاة لم تبق سوى فتاة واحدة فقط متدينة. وهذه ظاهرة يمكن ملاحظتها: في أوساط الصهيونيين المتدينين هنالك عودة واسعة جدا إلى نوع من العلمانية، ليس قريبا من علمانيتي أنا لكن علمانية ناعمة.

ثمة ظاهرة علمنة آخذة في الاتساع في أوساط الصهيونيين المتدينين. ولذا، أرنون سوفير هو، في رأيي، شخص غير ذي صلة أو أهمية للمجتمع الإسرائيلي بعد ٣٠ سنة.

المشكلة الأساسية، حقا، هي ليست المسألة الديمغرافية، وإنما: منذ اللحظة التي انهار فيها مشروع اليسار الصهيوني في أعقاب كامب ديفيد، لم يطرح هذا اليسار أي بشرى أخرى. ولهذا السبب، تحديدا، خسر هذا اليسار جميع المنافسات الانتخابية منذ ذلك الوقت. ليس لديه شيء حقيقي بديل يعرضه على الجمهور. وهذا، بينما نتنياهو واليمين يعرضان بشرى، إذ يقولان: البشرى التي نحملها هي أن يكون اليهود أقوياء وموحدين وأن يواصلوا تعزيز قوتهم ووجودهم حتى يضطر العرب إلى القبول بدولة إسرائيل وكونها دولة للشعب اليهودي.

(*) سؤال: هذه هي نظرية "الجدار الحديدي" التي وضعها جابوتنسكي....

برعام: نعم، تماما. وهي لا تزال فعالة ومفيدة لليمين ولنتنياهو بصورة لا بأس بها، إطلاقا، حتى الآن.

قالوا إن أوباما سيتخذ قرارات ويحدث تغييرات، لكنه لم يفعل شيئا.

قالوا إن الاتحاد الأوروبي سيتخذ إجراءات ويحدث تغييرات، لكنه لم يفعل شيئا.

أتحدث كثيرا مع ممثلي السلطة الفلسطينية وأنا متفاجئ منهم، لأن ما يقولونه لي يبدو غير منطقي. يرددون على مسامعي كل الوقت الحديث عن "الاعتبارات والمعايير الدولية". وهو ما يقوله ويردده، أيضا، صحافيون مقربون من السلطة الفلسطينية. صحيح أن هنالك اعتبارات ومعايير دولية. ولكن، حين تنظرون إلى المجتمع الدولي بصدق، هل تتصورون أنه قادر أو مستعد لفرض تسوية سياسية؟

من ناحيتي، أنا شخصيا أؤيد قيام المجتمع الدولي بفرض تسوية سياسية. ولكن هذا لن يحدث، كما يبدو واضحا. ويبدو لي، أيضا، أن السلطة الفلسطينية مشلولة ولا تحمل أي أفكار جديدة. وهي تؤمن بأن المجتمع الدولي سيقوم بالمهمة من أجلها، لكنني لا أرى ذلك مطلقا.

حين كنت في السادسة من عمري، قال لي والدي: كل هذا الاحتلال سينتهي ويزول في غضون خمس سنوات. لماذا؟ لأن العالم سيأتي وسيفرض حلا سياسيا. في هذه الأثناء، مرت ٣٠ سنة ولا شيء تغير. فهل نعود ونكرر الأقوال ذاتها؟

ماذا فعل ويفعل المجتمع الدولي؟

(*) سؤال: في التاريخ الإسرائيلي، نلاحظ أهمية مميزة للقائد. خذ رابين في أوسلو، مثلا، أو إيهود باراك في ما يخص الانسحاب من لبنان، أو أريئيل شارون في الانفصال عن غزة أو مناحيم بيغن في اتفاقية السلام مع مصر... هل ترى أن قائدا كهذا قد يظهر في إسرائيل في المدى المنظور؟

برعام: كلا، لا أرى مثل هذا الاحتمال. ومع ذلك، ثمة كثيرون يعتبرون نتنياهو قائدا بحجم هؤلاء الذين ذكرتهم. ينظرون إلى

نتنياهو ويقولون إنه وصل إلى السلطة وأعلن أنه لن يخضع للضغوط الدولية وها هو قد أثبت أن الضغط الدولي لا يأتي بأي نتيجة.

ثلاثون سنة وهم يتحدثون هنا عما يمكن أن يحدث حين تصل الولايات المتحدة إلى نقطة السأم من إسرائيل وعدم القدرة على تحملها أكثر... ستأتي عندئذ وتخيّر إسرائيل: إما إنهاء الاحتلال وإما العقوبات. لكن نتنياهو أثبت أن الولايات المتحدة ليست لاعبا، ولا حتى عاملا مؤثرا في عملية السلام. بسبب سياساتها الداخلية، تقف عاجزة عن فرض أي شيء على دولة إسرائيل. وهذا ما غيّر قواعد اللعبة السياسية الداخلية في إسرائيل نفسها.

وأعتقد، بناء على هذا، أن الأوساط الواسعة التي تستخف بنتنياهو وتستهتر ببرنامجه ترتكب خطأ. أعتقد أن لديه، من وجهة نظره، إنجازات عديدة. لقد أثبت أن كثيرا من الأمور التي قالها اليسار الصهيوني ليست صحيحة. أنظر، مثلا، إلى ما كانت تسيبي ليفني تسوّقه كل الوقت: المجتمع الدولي، المجتمع الدولي، المجتمع الدولي.... نتنياهو قلب ظهر المجن للمجتمع الدولي برمّته. وماذا فعل ويفعل هذا المجتمع الدولي؟ لا شيء، على الإطلاق.

أعتقد بأننا أضعنا فرصة الثمانينيات: السبب الذي دفع الجمهور في إسرائيل إلى معارضة الاحتلال والمطالبة بإنهائه هو رغبته في إنهاء الاحتلال ـ لأنه غير أخلاقي ويدمّرنا ويدمر المجتمع الفلسطيني ـ وليس بسبب المجتمع الدولي أو خوفا منه.

(*) سؤال: من الواضح كذلك أن المجتمع الدولي لا يعاقب إسرائيل ولن يعاقبها، لأنها تضطلع بدور أمني كبير في المنطقة وفي العالم بأسره...

برعام: لي صديق كان يعمل في وزارة الصناعة والتجارة،. يقول لي باستمرار: كل حديث اليسار الإسرائيلي عن عزلة إسرائيل الدولية هو محض هراء. فإسرائيل تقيم علاقات اقتصادية وتجارية، بما في ذلك تجارة الأسلحة، مع العديد من الدول في مختلف أنحاء العالم وقارّاته. ولذلك، لن يُقدم العالم على التصرف مع إسرائيل بمثل ما تصرف مع جنوب أفريقيا، لأسباب عديدة ومختلفة.

والسؤال الذي ينبغي أن يسأل هنا، في رأيي، هو: ماذا يفعله الطرف الآخر ـ السلطة الفلسطينية ـ في مثل هذا الوضع؟

لقد وجهتُ هذا السؤال إلى أشخاص من السلطة الفلسطينية: ما هي برامجكم وخططكم لمواجهة هذا الوضع؟ والمؤسف، كما يبدو، أنه لا توجد خطط ولا برامج.

ما بُني نتيجة أوسلو هو جهاز بيروقراطي يخدم إسرائيل في نهاية المطاف ويخدم الصورة التي تعرضها إسرائيل للعالم عن السلطة الفلسطينية وواقع أدائها. وكنت قد سألت والدي عدة مرات: لو لم تكن اتفاقيات أوسلو، والاحتلال الآن هو مثل ما قبل أوسلو، هل كان العالم سيبقى على حالة الصمت وعدم التحرك هذه التي هو عليها الآن؟ ولو لم يكن أوسلو وقامت إسرائيل بإطلاق جيشها لاحتلال ثلاثة ملايين فلسطيني في قطاع غزة والضفة الغربية، هل كان العالم سيقف متفرجا من دون اتخاذ أي إجراءات عملية؟

يبدو لي أن هذا ما فعلته اتفاقيات أوسلو من دون أن يرى ذلك أحد أو يفهمه. ولا أعتقد أن هذا الأمر كان مقصودا ومخططا من قبل رابين وحكومته آنذاك، لكن الحقيقة أن أوسلو جعل من السلطة الفلسطينية جسما وسيطا بين الفلسطينيين والاحتلال ويتيح لإسرائيل القول للعالم: ماذا تريدون منا؟ لديكم سلطة فلسطينية وحكومة فلسطينية ورئيس فلسطيني.... وأنا لا أعتقد بأن محمود عباس مستعد للتنازل عن السلطة الفلسطينية وتسليم المفاتيح لإسرائيل.

وهكذا يستمر الحال الذي يقول كثيرون جدا هنا وفي العالم أجمع إنه لا يمكن أن يستمر. أنا سألت أشخاصا كثيرين: لماذا لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر؟ أي قوة يمكنها وقف هذا الوضع والتسبب بإنهائه؟ أنا لا أرى قوة كهذه، لا الولايات المتحدة ولا سواها. وربما كان أحد الدروس الأكثر إيلاما لليسار الصهيوني في إسرائيل هو ما حصل بين باراك أوباما ونتنياهو. أوباما فقد أي اهتمام بالصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني منذ العام ٢٠١٠. لم يعد معنيا بسماع أي شيء عن هذا الصراع. ليس لأنه لم يرغب في ذلك، وإنما لأنه وصل إلى قناعة بأنه لا يستطيع التأثير والتغيير.

عن بعض سمات

الأدب الإسرائيلي الآن

(*) سؤال: أين تموضع نفسك على خارطة الأدب الإسرائيلي المقسم حسب أجيال: جيل عشية قيام الدولة، جيل الدولة وما إلى ذلك؟

برعام: جيل الكتاب عشية قيام الدولة تأثر كثيرا بالواقعية الاشتراكية السوفييتية، من حيث كتابة أدب واقعي يعالج مشكلات المجتمع ومعضلاته. وهذا هو مجمل النتاج الأدبي عشية قيام الدولة.

وبقي جيل عاموس عوز وأ. ب. يهوشواع ملتصقا بالمدرسة الواقعية، لكنه اتجه أكثر إلى الأدب النفساني والاجتماعي. ثمة قليل جدا من الخيال العلمي والفنتازيا في الأدب الإسرائيلي.

أما جيلنا نحن، الجيل الشاب من الكتاب، فهو يقتحم الحدود

في هذه المسائل من حيث طرق جانرات أدبية جديدة ومتنوعة ولا تقتصر كتاباته الأدبية على صراعات وتناقضات إسرائيلية فقط. خذ روايتي الأخيرة، مثلا، "ظل عالَم" (٢٠١٣) التي ترجمت إلى عدة لغات. تدور أحداثها في إسرائيل وفي أماكن أخرى من العالم وتسعى إلى سبر أغوار المنظومة الرأسمالية.

كذلك، جيلنا أكثر تحررا من التفكير والتوجه بأن الأدب يجسد فقط مشكلات اجتماعية وسياسية، وإنما يسعى إلى فهم واستيضاح صراعات أوسع يمكن وصفها بأنها صراعات عالمية. ونرى الآن نتاجات أدبية من جانرات مختلفة، بما فيها الخيال العلمي والفنتازيا. ثمة انزياح عن "طريق الصواب" المتمثلة في الواقعية، وهو أمر مثير يحصل في الأدب العبري في إسرائيل الآن.

(*) سؤال: ثمة موجة من الأدب الديستوبي الآن... ما رأيك فيها؟

برعام: نعم، وأنا كتبت فيها أيضا. القلق الديستوبي من إسرائيل حريدية (دينية متزمتة) كان حاضرا على الدوام ومنذ زمن بعيد. يورام كانيوك وعاموس عوز كتبا روايات كهذه. هذا القلق من إسرائيل الحريدية، المتدينة، القومية، هو قلق مثير لبعض الملل في رأيي.

هذا جزء من نقد يوجهه الأدب للظواهر والمشكلات الاجتماعية. لكنني أعتقد أن الخطأ الذي ارتكبه كتاب كثيرون هو التشديد على المسألة الدينية. ليست هذه هي المشكلة الرئيسة، وإنما المسألة القومية العلمانية الإسرائيلية، التي لا تقل خطورة عن المسألة الدينية والعودة إلى الدين.

غالبية الإسرائيليين العلمانيين تفهم القومية واليهودية على نحو أشد خطورة من الفهم الديني. وهذه هي نقطة العمى التي تعاني منها الصهيونية. دافيد غروسمان وعاموس عوز تساءلا عما حدث للصهيونية في ١٩٦٧. ماذا حدث؟ الصهيونية العلمانية أحسنت استخدام واستغلال الفكرة المسيانية والبعد الطائفي حتى لطمها في وجهها. ولم تكن بريئة منه إطلاقا.

لقد ظل خطابنا متركزا في الحديث عن الأغلبية اليهودية كل الوقت. وحين تتحدث عن اليهود وعن الأغلبية اليهودية كل الوقت، فهذا ما يحدث في نهاية الأمر.

ولذلك، أعتقد أن هذه الديستوبيات ليست الأمر المثير والمهم في الموضوع. إنها لا تعبر عن المشكلة الجديدة التي تواجهها إسرائيل، وإنما تعبر عن قلق الإشكنازيين العلمانيين مما يحصل في إسرائيل ولها، وهو قلق مستمر منذ ٤٠ سنة.

(*) سؤال: ثمة نقاد يعتبرون أن موجة الديستوبيا بمجملها ليست إلا عملية أمركة الأدب الإسرائيلي. هل تتفق مع هذا التقييم؟

- برعام: الديستوبيا ليست جانرا أميركيا فحسب، رغم أن له تاريخا طويلا في الأدب الأميركي. ولكنه موجود أيضا في الأدب الأوروبي.

  وأعتقد أنه من محاسن الصدف أن الأدب الإسرائيلي متأثر بالآداب العالمية المختلفة ويتم سكب انعكاسات هذا التأثير في قلب الأدب الإسرائيلي.

(*) سؤال: هل تقرأ أدبا عربيا؟

- برعام: أقرأ نتاجات مترجمة. قرأت كثيرا من الأعمال الأدبية التي ترجمها يهودا شنهاف، وأذكر منها مقالات لقسطنطين زريق اقتبست منه في كتابي. قرأت قصصا كثيرة عن النكبة وأقرأ من أعمال كتاب فلسطينيين مواطني إسرائيل.

  أحاول قراءة أكثر ما أمكنني من الأدب العربي، لكن المشكلة أن الترجمات الأدبية قليلة جدا، نسبيا، وخصوصا أعمال كتاب فلسطينيين يجب العمل على ترجمتها إلى العبرية. والواقع أن قراءة ترجمات لكتاب عرب غير فلسطينيين أسهل على القارئ الإسرائيلي من قراءة ترجمات لكتاب فلسطينيين.